

الشخص الثالث

لم يكن قد مضى على إقامتي في مدينة ليدز أكثر من شهرين قضيتهما بين الجامعة والمنزل ، ما حاولت أن أختلف فيهما إلى مراقص تلك المدينة الجميلة ومشاربها وملاهيها لأهوى بعض الوقف ، حتى عطلة آخر الأسبوع كنت أقضيها في غرفتي بين الكتب . ولم يكن يعتريني من كل هذا ملل أو سأم ؛ فقد درجت على مثل هذا النوع من الحياة منذ الصغر ومنذ أدخلت المدرسة في مصر ، وتعودت حياة الجد ، ولم أكن لأغيرها بعد أن رأيت أن النجاح كان حليفي في كل مراحل حياة الدراسة . وكان أبي - رحمه الله - يفخر بي ويشجني على هذا ويصرفني - بشتى المغريات وصنوف الحيل - عن الألعاب الرياضية وغيرها من الجمعيات الثقافية . وقد أدركت الآن أنه وإن يكن النجاح قد حالفني ، فقد خرجت من معركة المدرسة بنظر قصير وجسم هزيل وخبرة قليلة بشؤون الحياة .

وفي يوم الأحد التالي لانقضاء هذين الشهرين كنت جالسا في الغرفة أطالع كعادتي ، وإذا بصاحبة المنزل تدق الباب وتستأذن في الدخول ، وقت لاستقبالها ؛ فدخلت وقالت لي وفي صوتها رنة العطف - وفي الحق أن هذه المرأة كانت لي في هذه الغربة أمًا مؤنسة :

- إنك يا مستر ريدي غريب الأطوار . إن أهالي ليدز في مثل هذا اليوم يفادرون المدينة فتيانًا وقتيات ، أزواجًا وزوجات ومعهم أطفالهم ، إلى الريف الجليل يستمتعون بمناظره الخلابة . وإني لأعجب أن يقبع شاب في مثل سنك في غرفته يوم الأحد كما تفعل المجاز والمريض ، وما كان أحوجك وأنت تدرس طوال الأسبوع إلى الخروج في مثل هذا اليوم لتجدد نشاطك . وقد تأملت لك وفكرت طويلا فيما قد يؤول إليه حالك إذا أنت انصرفت إلى الدرس وحده .

وها أنت ذاترى منظارك السميك وجسمك الهزيل ، فإذا أنت صانع بعد هذا ؟ يجب يا عزيزى أن تقرن الجد بشيء من اللهو البريء . وكم يسعدنى أن يكون إلى جانبك فتاة طيبة الخلق ترتاد وإياها الحداثق أيام الآحاد والأعياد . وإنى موقنة بعد ذلك أنك لن تأسف على هذه الساعات السعيدة ... فبعد سنوات قد تتزوج وتكون لك أسرة وتثقل كاهلك هموم الحياة ، وحينئذ تفتش بين طيات الماضى عن هذه الساعات السعيدة ، وسوف تذكرها ، وستظل تذكرها دائماً ؛ لأنك لا تستطيع إلا أن تذكرها . وإنه ليسعدنى أن أخرج بك من هذه العزلة وأدعو إلى منزلى يوم الأحد القادم بعض الفتيات والفتيان - ومن بينهم فتاة من أسرة فى الريف كنت أسكن إلى جوارهم قبل زواجى إلى المدينة - وقد اخترت لك هذه الفتاة لأنها جميلة ، وعلى شيء من الثقافة ، كما أنها على خلق كريم . فإن رغبت فى هذا فسأكتب لأبيها أطلب إليه أن يسمح لى بأن أضيفها عندى ليلة الأحد . وإنى إنما أفعل ذلك لأدفع عنك الضجر ، ولأدخل عليك شيئاً من السرور . فهل أنت راض عن هذا ؟ وهل لى أن أكتب لأدعو هذه الضيفة الكريمة ؟ ثم أمسكت . وفكرت من جانبي فيما قالت ، وتذكرت أبى وشدة حرصه على أن أكون ذلك الطالب الذى يصل ليله بنهاره بين الكتب ، وذكرى كذلك أن النجاح كان حليفى فى هذه الحياة المضنية الشاقة ، ولاح لى فى هذه الآونة خيالى فى المرأة ، فرأيت منظارى السميك وجسمى الهزيل ، وفى حركة عصبية قلت لصاحبة المنزل وقد انتصبت واقفة أمامى يشع من عينيها بريق فيه رحمة وفيه عطف كثير :

— إنى راض ياسيدتى عن كل ما تقترحين ، وإنى لك لشاكر .

وكان يوم الأحد ، وحضرت الفتاة فيمن حضر ، ونعمت مع الجماعة بأطيب وقت ، وانقضى اليوم على خير ما تنقضى به الأيام ، وخرجت أصحاب الفتاة ، وركبت وإياها قطار الضواحي ، وتحدثنا كثيراً فى رحلتنا القصيرة ، فسألتنى عن مصر وعن آثارها وتاريخها . وصر القطار ينهب بنا الأرض ، حتى إذا ما أشرفنا على قريتها طلبت إلى فى أدب جم وفى شيء من الاعتذار ألا أصحبها إلى منزلها ؛ لأنها لا تود أن تظهر مع غريب فى طرق القرية الصغيرة ، وهى تخشى أن يؤدى ذلك إلى فسح خطبة شقيقتها ، فقد يتقول الناس عليها وتلو كها السنة السوء . فنزلت على إرادتها ورجعت أدراجى بعد أن ودعتها فى المحطة .

الشخص الثالث

نمت ليلتي نوماً هادئاً بعد أن فكرت طويلاً في تلك الفتاة الفاتنة . فلما أصبحت قابلت ربة البيت ، فابتسمت وسألتني :
— كيف حالك الآن يا مستر ريد ؟
ثم أردفت :

— هل لك في أن أدعو صاحبك مرة أخرى لتحمي عطلة آخر الأسبوع عندنا؟ فأجبتها على الفور أجزل لها الشكر وأقول لها افعلي بربك وادعيها كل أحد، وانحنيت وخرجت وهي تشيعني بنظرات الأم العطوف، ولكن في شيء من الخبث . وحضرت نورا وكنت أخرج معها للنزهة في الرياض ، واشتركت معها في أندية رياضية عدة . ولكن ذلك كله لم يشغلني عن الدرس والتحصيل ، وحمدت الله على ما آلت إليه حالي ، فقد زال عني الهزال والضعف .

تعددت زيارات نورا المنزلا ، وتوثقت بيني وبينها صلات الود . وعند عودتي ذات يوم من الجامعة رأيت صاحبة البيت تستقبلي بالباب لتقول لي إن والد نورا في غرفة الاستقبال وقد حضر يريد مقابلي ، فدخلت غرفتي وأنا أفكر فيما فجأتني به ، وأفكر فيما دعا هذا الرجل إلى الحضور وأنا لم أعرفه من قبل ولم تقدمه إلي ابنته ، وقد حظرت علي ألا أصحبها إلى منزلها ، فما الذي حدث وأنا لم أفعل شيئاً إلا ما عليه ؟ جال كل ذلك بخاطري وشاعت الهواجس في نفسي وأنا رجل شرقي أحسب حساباً لكل خطوة في مثل هذه الأمور ، وأعرف عواقب هذه المقابلات ، وأنا ما زلت كذلك كعضو بعثة وأخشي على مستقبل ، فإذا عسى أن تكون نتيجة هذه الزيارة المفاجئة ؟ ثم طفقت أفكر وأخذت رأسي بين يدي وجعلت ألعن صاحبة المنزل وأنحي باللوم على نفسي أن قبلت اقتراحها ، وتوهمت أن لعنة الله قد نزلت بي لأني حدثت عن الطريق التي رسمها لي أبي . وبعد هنيهة دقت صاحبة المنزل باب غرفتي ، ولعلها استبطأتني ، وقالت :

— أسرع يا مستر ريد ، فإن والد نورا في انتظارك . . .

أفقت من أحلامي ، وبدلت ملابسي ثم استجمعت شجاعتي وسرت في خطي نابتة إلى غرفة الاستقبال ، فرأيت رجلاً فارح الطول ، يناهز الحسين ، يخف لمقابلي ويشد على يدي في شيء من القوة ، ثم جلس وجلست ، وبعد فترة غير قصيرة قال لي في هدوء :

— لقد أخبرتني نورا كل شيء . . .

ولم يكذبتم كلمته حتى تصببت عرقا ، ولكنه عاد يقول :
 — إنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد أخبرتني عن عنايتك بها ، وكيف
 أنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد حضرت لأشكر لك صنيعك .
 وفي الحق يا بنى أنى لا أستطيع أن أفيك حقك من الشكر ، فأنا أعيش وأسرتي
 فى جو يسوده الهدوء فى منزلنا الريفى ، ولم يكن ليختلط بنا إلا نفر قليل من
 أهالى القرية ، ولم يكن شئ من المرح يعرف طريقه إلى دارنا إلا بعد أن تمت
 خطبة ابنتى الصغرى ، وقد قدر لهذه الخطبة أن تفسخ . وبرت أسرتى بهذا
 الهدوء المطلق وبخاصة زوجتى ، فلم أجد بداً من أن أدعو أحد معارفى ليقم
 معنا ونتقاضى منه أجرا ، فلا يستشعر خجلا فى ضيافتى التى قد تطول . وهذه
 عادة بلادنا نعمد إليها لتغير من جو الضجر وتقلل من هذا السكون الممل .
 وها قد عاد إلى بيتنا شئ من السرور ، وقد شكرت هذا الرفيق من قبل ؛ لأنه
 سرى عن زوجى وابنتى الصغيرة ، كما شكرت لك الآن مثل هذا الصنيع الذى
 قت به نحو نورا . . .

ووقف الرجل وسلم وانصرف وأنا لا أصدق أنه ما حضر حقا إلا ليشكر ،
 وأخيرا انقضت وساوسى وحمدت الله على هذه النتيجة .

سافرت من ليدز إلى باريس لأتم بعض البحوث الخاصة برسالة
 الدكتوراه التى اعترمت أن أتقدم بها إلى الجامعة بعد سنة . وانقطعت أخبار
 نورا عنى ولم تتراسل طوال هذه المدة ، ثم عدت إلى ليدز وقابلت الفتاة
 مصادفة ، فقالت لى إنها تسكن الآن مع أمها وأختها ووالدها الجديد فى المدينة
 وتركتنى مسرعة لأنها كانت على موعد مع أمها . ووقفت هنيهة أتبعها نظرى
 وأنا لا أفهم مما قالت شيئا ، ثم رجعت إلى غرفتى ، ودعوت صاحبة المنزل
 وأعدت على سمعها هذه الجملة التى قالتها نورا ، ورجوتها أن تفسر لى هذا اللغز
 وهل يستطيع الإنسان فى هذه البلاد أن يكون له والد قديم ووالد جديد ؟
 فضحكت وقالت لى :

— ليس فى هذا غرابة ، وسأحدثك عن ذلك كله . لقد أخبرك والد نورا
 أنه ضم إلى أسرته ضيفا ، وقد حدث ذات يوم أن تقدم الزوج إلى زوجته ،
 وقد نمت إليه بعض إشاعات أو لعله لحظ شيئا من التغير فى سلوك زوجته ،
 فأخبرها أنهم لم تعد بهم حاجة إلى هذا الضيف بعد ، واخبر أن يطلبوا إليه

- بعد أن ينتحلوا له المعاذير - أف يحنى غرفته . ولعله لم يشأ أن يبوح لها بشيء من الشك في أمرها ، فتعمل بأن ابنتيه قد يتقدم من يطلب يد واحدة منهما ، واستحلفها بحبه أن تجيبه إلى طلبه . أما الزوجة فقد أجابت على الفور أنه إن فعل ذلك ، فلا بد لها من أن تهجر البيت وتلحق بهذا الضيف . ودهش الزوج لجرأة زوجته وصراحتها ، وقال لها : « أنا إنما أتكلم عن رجل استأجر غرفة في منزلنا ، لا عن عشيق يقيم تحت سقف بيتي بين زوجي وابنتي . وهل أستطيع أن أفهم من قولك هذا أن بينكما علاقة حب أو غرام ؟ وهل لك أن تصارحيني بكل ما حدث بينكما ؟ فظلت الزوجة هادئة فترة ، ثم ما لبثت أن قالت لزوجها إنها تحب هذا الرجل ، وإنها لا تستطيع أن تفارقه أو تعيش بدونه لحظة واحدة . فاعتلجت في صدر الرجل عوامل عدة من خير وشر أخذت تتناوبه ، وأخيراً انتصر عنصر الخير في صدر الرجل الذي كان يجب زوجته ويعبدها ، فاعتدل في مكانه وقال لها : « أواثقة يا عزيزتي أنه يبادلك هذا الحب ؟ » فأمنت على ذلك . فرجاها زوجها أن تدعو الضيف إلى مقابلته على انفراد ، فحضر وأراد أن يعتذر عن كل ما حدث ، ويقول إنه لم يقصد إلى ذلك ، ولكن الزوج قاطعه في حدة وصرامة ، وقال له : « لقد عرفت كل شيء ولست ألومك أو ألومها على عاطفة جامحة كثيراً ما تأخذ بلب الإنسان وتغلبه على أمره ، وليس لي إلا أن ألوم نفسي ، فأنا الذي مهدت لكل ما حدث ، وقربت بين قلبين كانا بعيدين . ولست أفكر يا سيدي في الانتقام من أحد بعد أن أربت سنى على الحسين ، ولا أذكر أن فؤادى انطوى يوماً ما على حقد أو ضغينة ، فما كان ليعرف موجدة أو يكن حفيظة . ولنسعد الكلام في هذا جانباً ، وما أحسب أنك تهتم له الآن ، وقل لي بربك هل تحبها حقاً ؟ وإذا أنا أخليت سبيلها ، فهل تقبلها زوجاً ؟ وهل تعاهدني على ذلك كرجل شريف ؟ فإنني أحبها كذلك ، ولا أرضى لها أن تعيش خليلة .

وذهل الضيف لما رأى من هدوء الزوج ، وزم شفثيه وظهرت على أساريره أمارات حزن عميق . وخيم في جو الغرفة سكون لم يلبث أن بدده صوت الزوج يقول لصاحبه : « الكلمة الآن لك يا سيدي . » ولكن الضيف لم يتكلم وظل صامتاً ، ولعله حاول السلام فلم يقو عليه ، وأخيراً ركب أمام الزوج وفي عينيه دموع وأجهش يبكي وطلب إليه أن يغفر له زلته . فتهرر الزوج وقال له في

خشونة : « ما لهذا طلبت الانفراد بك ، وإني أطلبك الآن بأن تجيب على أسئلتى » . فوقف الضيف ومضى يتعثر واستند إلى أحد المقاعد وقال للزوج : « أجل ! إني أحبها وسأ تزوجها ، على شريطة أن تبارك لنا هذا الزواج . » فتمتم الزوج ببعض كلمات غير مفهومة كأنما كان يصلى بينه وبين نفسه ليشد أزرها ، فقد كان يخشى على هذه النفس المطمئنة أن تنال منها تلك الصدمة فتوهنها ، أو لعل الزوج في صلاته القصيرة كان يبارك هذا الزواج المقبل الذي رسمه لزوجته ولهذا الرجل المسائل أمامه ، أو لعله في صلاته القصيرة كان يصب جام غضبه ويستنزل لعنة ربه على هذين المخلوقين اللذين حطما منه قلباً كان عامراً بالعطف والحب لأسرته الوادعة .

وخرج الرجلان وافتراقاً دون أن يتبادلا كلمة أو تحية . واعتزم الزوج أمراً أصره في نفسه ، وغادر منزله وعاد بعد أسبوع فقابل زوجته وقدم لها وثيقة وقال لها : « ستجدين في هذه الوثيقة يا عزيزتى ما تقدمينه إلى المحكمة برهاناً على خيانتى العهود الزوجية . فقد صاحبت إحدى بنات الهوى وعاشرتها بضعة أيام في أحد الفنادق ، وقد أثبت كل هذا في الوثيقة — فما عليك إلا أن تتقدمى بها للمحكمة مطالبة بالطلاق ، وستنزل على لعنة القاضى ، ولكنى سأتحمل هذه الصدمة ، وسأتزك لك منزلى عن طيب خاطر حتى تنتهى المدة التى يحق لك أن تتزوجى بعد انقضائها . » ثم قبل زوجته وابنتيه ، وجد الدمع فى عينيه ورح المنزل بعد أن قدم لها هذه التضحية التى لم تكن لتظفر بزواجها الجديد بدونها . وها أنت ذا ترى أن كل شئ قد تم — كما أراد الزوج وأرادت الزوجة — وها هى ذى نورا صديقتك قد انتقلت مع أمها وأبيها الجديد إلى المدينة ، وعاد الزوج القديم إلى منزله الرينى يعيش فيه كالراهب وحيداً إلا من رحمة الله . وسكنت صاحبة المنزل . أما أنا فما زلت أذكر هذا الرجل الوقور الذى خف إلى ليشكرنى ، وما زالت ترن فى أذنى كلمات الشكر التى كان يتقدم بها للشخص الثالث الذى أدخل السرور على زوجته وابنتيه ، والذى غير الجو الهادئ للمحل ، والذى سلبه أخيراً قلب زوجته التى أحبها وما زال يحبها .